محكم

الصلة بين الوحي والواقع في فكر حسن حنفي:

محاولة للتفهم

بلال مقنعي

باحث جزائري

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

"لقد آن الأوان لجيلنا أن يتجاوز أحادية الطرف، والتفكير والتخوين المتبادلين، ففي الفكر والوطن متسع للجميع"

د. حسن حنفي

على سبيل التقديم:

يعاني فكرنا الإسلامي المعاصر، من قلة الإنصات، وسرعة رد الفعل والتسرع في الحكم، وهذا من المشكلات الموروثة عن تاريخ طويل من التشنج المذهبي الذي صبغ الحوار الإسلامي الإسلامي منذ الفتنة الكبرى، والذي هو في كثير من تجلياته لا حوار ولا تفاهم وبالتالي لا تفهُّم، وإلى يومنا هذا نلحظ نوعَ جفاء بين التيارات الفكرية في أمتنا، رغم صيحات التقريب الأخيرة التي تنطلق هنا وهناك، ورغم ادعاءات التنوير والسماحة والعقلانية التي تطبع لغة البعض. لذا قد أتوقف عند عبارة "محاولة التفهم" التي ذيلت بها العنوان:

فلماذا أحاول **"التفهم"**، وما جدوى هذه **"المحاولة"**؟

ألا توقعنا **"المحاولة"** - حين تكون في باب المعرفة والمعرفي - في الذاتية والتبريرية؟

المحاولة - في نظري - تكون مجدية وموضوعية وعلمية، في الطرح المستمر للسؤال، هي إلحاح على الفهم.

والتفهم ما هو إلا نتيجة للمحاولة حين يكون النظر نافذاً لعمق المشكلة، لجوهر الاستشكال، فلا يسمع الجواب إلا من يطرح السؤال، والفاهم الجيد هو المتسائل الجيد.

من هنا فقراءتي لحسن حنفي كانت من هذه الزاوية، من منطلق البحث عن مشكلاته وأسئلته، وإعادة صياغتها وفق رؤية توافقية مع المشكلات الكبرى التي تستشكل على العقل من حيث هو، وعلى العقل المسلم من حيث هو مسلم.

والإشكال الرئيس الذي نحاول الإجابة عنه من خلال أطروحة الدكتور حنفي هو:

لمن الأسبقية: **أللنص أم للواقع؟**

أي للنص المقدس الوحياني المنزل إلهياً، في مقابلة الواقع المدرك إنسانياً. السؤال نفسه أو قريباً منه طرح قديماً بصيغة أخرى: أيهما نقدم **النقل أم العقل؟**

لذا، فيمكننا صياغة سؤال آخر بطريقة أكثر جسارة- محاكاة لمنهج حنفي الثوري والصادم- فنقول لأي من الموضوعين تتمثل المركزية: **الله أم للإنسان؟**

وقد يبدو طرح هذا السؤال من أساسه من باب الممنوعات في أدبيات الثقافة الإسلامية التقليدية، بصرف النظر عن طبيعة الاختيار، فمجرد طرح سؤال كهذا في النموذج الإسلامي التقليدي يعد جرأة فكرية.

وفي هذا العرض، سنجد محاولة للكشف عن النموذج المعرفي الكامن في فكر حنفي، وكيف تغلغل في **النص** ليخرج منه إلى **الواقع؟**

كيفية التحرك من **العقيدة** إلى **الثورة؟**

هي مجموعة من الأسئلة نطرحها على فكر حنفي، أو يطرحها علينا حنفي.

نستتبعها بمجرد قراءة ومتابعة متجرِّدة ومُجَرِّدة لفكر حنفي، بصرف النظر عن مصادره المعرفية وبغض الطرف عن أية مقارنة فكرية؛ فالغرض هو الوصول إلى النموذج المعرفي الكلي والنهائي الذي يقودنا إليه مشروع الدكتور حنفي.

ما الغاية: النص أم الواقع؟

تتفق التيارات الفكرية المختلفة - السلفية والإصلاحية والحداثية- في عالمنا الإسلامي على أن أمتنا عاشت حالة **أزمة**، وحالة **ركود**، أزمة وركود حضاريين، وبالتالي لابد من حركة لحل الأزمة وإزاحة الركود، للنهوض بالأمة، ويطبقون تقريباً على أن الحركة المطلوبة هي حركة تجديد، وقد رأيت تصنيفها من حيث عملها في النص، إلى ثلاث حركات أو نماذج:

أ- التجديد في النموذج (السلفي/ التقليدي)[1] يكون بالعودة إلى الأصول، إلى المنبع، بإعادة التجربة السلفية الأولى وفق رؤية القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية، حيث عايشوا تنزل الوحي، ونقلوه بأمانه وطبقوه

[1]- النموذج السلفي لا نقصره على الحركة السلفية التيموية أو الوهابية، أو الخط الحنبلي عموما، ولكنها تتجاوزها لكل حركة تعتمد فهم السلف فهماً نموذجياً ومثالياً، سواء في العقيدة أم في الفقه، ويمكننا أن نضرب أمثلة ببعض الأشاعرة المعاصرين، كالشيخ محمد زاهد الكوثري أو عبد الفتاح أبي غدة أو سعيد فودة، فيرون أن مذهبهم العقدي الأشعري هو مذهب السلف وينتصرون لذلك بآثار مختلفة.

بإخلاص، فسادوا لقرون تالية، والمجدد هو ذلك الشخص القادر على العودة، القادر على تكرار التجربة، واستعادة النموذج الأول، مثال الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، التطبيق المثالي للنص، والفهم الأمثل للوحي، فيبقى فهم هؤلاء السلف الأولين للدين كاملا ومثاليا، ولابد من تثبيت ذلكم الفهم وتخليده، فتجديدُه ليس يعني إلا استرجاعه، والمجدد هو ذلكم الشخص الذي يمكنه الكشف عن فهم السلف للنص، وهذا يتحقق بنصوص منقولة، بآثار منسوبة لقائليها فقط لا غير، فالغاية فهم معين ومحدد سلفا للنص، النص هو الغاية، والنص هو الوسيلة.

ب- والتجديد في النموذج (الإصلاحي/العقلاني)[2]، هو حركة نحو فهم جديد للدين؛ أي للنص، فالمشكلة تكمن في خلل اعتور الفهم التراثي – خاصة في العصور المتأخرة، فهم جعل المتأخرين يحيدون عن المقاصد التي رمى إليها النص الديني، وذلك بسبب التقليد؛ فالتقليد آفة الآفات، وبالتالي لابد من اجتهاد جديد، فالتجديد يكمن في مقاربة للنص مقاربة جديدة تستلهم روحه ومقاصده وتستقوي بالتطبيقات الناجحة للسلف الأولين، ولكنها لا تستعيدها إلا لتبني عليها، وفق رؤية تساير النص في مقاصده لا في شكله، في خطه العام وخطته، ولكنها **لا تخرج** عن مساره، هي **إكمال** للمسيرة، وليس وقوفاً عندها، وحتى نفهم النص لابد من فهم الواقع، فالواقع وسيلة جديدة لفهم النص، الواقع الحالي في حركته وصيرورته، لذا يمكننا القول إن التيار (الإصلاحي/ العقلاني) جعل النص **غاية** والواقع **وسيلة**.

ج- التجديد في التيار (الحداثي/ العلماني) يأخذ منحىً مختلفًا عن المنحيين السابقين؛ ففي نموذج حسن حنفي - مثلا - لا بد من استبدال التجربتين السابقتين كليهما بتجربة أخرى جديدة ومغايرة، فلا النموذج (السلفي/ التراثي) ولا النموذج (الإصلاحي/ العقلاني)[3] يمكنهما حل المشكلة، لأن النموذجين على السواء يدوران في فلك واحد، هو فلك (**النص/ الوحي**)، ولهما غاية واحدة هي فهم (**النص/ الوحي**)، كلاهما يعتقد أن الوحي يملك الحل ويضمنه، وكل تيار يبحث عن ذلك الحل من داخل النص:

- (**ناجزا**/ موجودا سلفا/ جاهزا) بالنسبة للسلفيين.

وتندرج الحركة الفقهية المذهبية التي تتمحور حول فكر إمام المذهب كالمالكية أو الشافعية أو الحنفية، فهي تتبنى طرحاً مذهبياً سلفياً، تستند فيه إلى نصوص الكتاب والسنة، وفهوم أئمة المذهب وتفرع فكرها على أصول المذهب، سواء في العقيدة أو الفقه، ومنها أيضا الشيعة الإمامية التي تتبنى نصوص الأئمة، الإباضية أو الزيدية إلخ...من الحركات التي ترى التجديد هو عودة إلى أصول إمام أو أئمة من السلف الصالح.

[2]- أقصد بالنموذج الإصلاحي، الحركة التجديدية التي تحاول عقلنة الأحكام الدينية، وتستمد شرعيتها من القرآن؛ فهي حركة دينية، تستند إلى الدين بمعناه الشامل والواسع، وليس لها تقديس للسلف، يسميها الأستاذ مصطفى ملكيان بحركة الإسلام الحداثي منهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والسيد أحمد خان، وهذا التيار يرى أن العقل (البرهاني) هو مصدر من مصادر الحقيقة والمعرفة إلى جانب الكتاب والسنة. مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية- مقاربات في فلسفة الدين، ترجمة عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، و مركز دراسات فلسفة الدين- بغداد، ط1، 1431-2010، ص 49

[3]- قد يرفض الحداثيون وسم التيار الإصلاحي الديني بصفة العقلانية، لأنه يرتكز على الوحي مصدراً أول لفكره، فهو يجعل العقل وسيلة للدفاع عن العقائد الدينية، ومصطلح العقلانية تتجاذبه أطراف مختلفة، يمكننا أن نصف التيار الإصلاحي التجديدي مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي وعلي شريعتي وغيرهم بأنه تيار العقلانية الدينية؛ أي التي لا ترى تعارضاً بين الوحي والعقل، وترى العقل وحياً والوحي عقلاً. في مقابلة العقلانية العلمانية، والتي ترى في الكثير من أحكام الوحي معارضة للعقل، وتجعل أساسها الفكري هو العقل، والعقل مصدراً رئيساً للفكر.

- (**كامنا** / متهيئا/غير جاهز) بالنسبة للعقلانيين.

خلافا لهاتين النظرتين، يرى الدكتور حسن حنفي أن المشكلة بالأساس مشكلة **واقع**، مشكلة فهم **للواقع** للنهوض بالواقع نفسه.

لذا فلا نتجه إلى **النص** بحثا عن الحل، بل إلى **الواقع**، والخط الصحيح هو تغيير المسار من **"النص إلى الواقع"**.

فحل المشكلة غير ضروري أن يأتي من داخل النص- وهذا لا ينفي امكانية احتواء النص على إجابات نظرية أو حلول عملية- ولكن ضروري أن يحتوي الواقع على ذاك الحل، وتلك الإجابة، لأننا نتحرك داخله ونعيش فيه.

الخطة تتجلى في كيفية النهوض من الواقع بالواقع.

(النص) في النموذج السلفي **غاية وسيلته** هو (النص) نفسه، وفي النموذج الإصلاحي (النص) **غاية** و(الواقع) **وسيلة** لفهمه، هذا الفهم السليم الذي سيعود بدوره على (الواقع).

(الواقع) هو **الغاية** - عند حنفي-، ونحن نتوسل للنهوض به كل الوسائل المتاحة (النص) و(الواقع) نفسه، و(الواقع) هو المعيار الأصيل والنهائي.

في نموذج حسن حنفي علينا أولاً، أن نعيد صياغة **الأهداف** وتحديدها؛ فالهدف ليس الوصول إلى فهم أعمق وأوفق للنصوص الدينية المقدسة، ولا إلى استعادة فهم معين سُبِقنا به إلى النص المقدس، بل هو الوصول إلى آليات معرفية وعملية للنهوض **بالواقع**، حتى لو كان هذا على **حساب النص** وفهمه.

بعبارة أخرى، علينا أن **نبحث** عن **محل آخر للبحث**، فالذين يبحثون عن الحل داخل النص يضيعون الوقت، عليهم أن يتجهوا للواقع ليبحثوا عن الأجوبة فيه. وسنرى أن هذه المفارقة؛ أقصد "موضوع البحث وموضعه" هي نقطة جوهرية توضح الصورة، وتضع اليد على موضع الافتراق الأساس بين منهج التيارات الإسلامية التقليدية، وبين أحد نماذج التيار الحداثي، نموذج الأستاذ حسن حنفي. وهذه الملاحظة لا تنفي أن هناك مبررات للحداثيين تجعلهم يتجهون للنصوص بالبحث، فهم لا يتجهون إليها أصالة، بل كخطوة إجرائية حين يضطرهم الخلل الموجود في (الواقع) للبحث عن مسبِّبه داخل (النص) إن كان مسببه هناك.

من أين نبدأ؟

يبحث الدكتور حنفي عن كيفية إحداث **نهضة ثانية؟**

"نهضة" بديل عن عصور التقليد الفكري للأسلاف وللتراث للموجود، نهضة تصنع ثورة على الركود والتخلف والقهر.

"ثانية" بعد تلك التي حصلت في القرون السبعة الأولى الموالية لعصر **النص**، هذه **النهضة الثانية** التي تنقل الحضارة من طور إلى طور.

كيف تصنع هذه النهضة المستقبل، المستقبل المتحرك لا السكوني، مستقبل يتجه إلى الأمام لا إلى الخلف، حتى نقضي على الازدواجية التي خلقت فصاماً بين الشخصية الوطنية والحركة الدينية والحركة التقدمية العلمانية.[4]

يرى حنفي أن علم أصول الدين هو الكفيل بتحريك هذا **الواقع**، والسبب واضح في فكره؛ فعلم أصول الدين هو الذي حرك الأمة في قرونها السبعة الأولى (من القرن الأول إلى السابع)، وهو الذي جمدها في السبعة التالية (من السابع إلى الرابع عشر)، وهو الذي يمكنه إعادة تحريكها وبعثها من جديد في قرون سبعة لم تأت بعد.

فعلم أصول الدين هو **العلم النظري** الموجه للواقع.[5] إذن، فسؤال النهضة يستلزم واقعاً بديلاً بعلم نظري جديد، وهذا يحدث بالقضاء "على التحجر من الداخل والتقوقع على الذات وتحويل العقائد إلى أشياء ومقدسات".[6]

ولا شك أنه لا بد من حركة ثورية في المفاهيم الكبرى في هذا العلم - علم أصول الدين أو العقيدة - حتى لا نكرر الفشل ولا نسترجع الركود بركود آخر.

لابد من إصلاح حقيقي، حتى تحدث نهضة ومن ثم ثورة.

فكيف نجعل منطلق هذه النهضة (الواقع/العقل/ الإنسان) الوريث العقلاني للباعث الأول للنهضة الأولى (النص/ النبوة/ الله)؟

---

[4]- حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة، دار التنوير**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج1، ص 73

[5]- السابق، ج1، ص 73

[6]- حسن حنفي، **من النقل إلى الإبداع**، دار قباء، القاهرة، د.ط، 2000، ج1، ص 20

إشكالية غياب الإنسان أو تغييبه:

يبدأ حنفي في حركته المتجهة بعلم أصول الدين نحو الثورة، بنقد هذا العلم، وأول نقد وجهه إليه هو تركيزه على قطبين من أقطاب الفكرة الدينية، وهما: (الله) و(الرسول)، في حين غيب العنصر الأهم – حسب حنفي – ألا وهو (الإنسان).

ينتقده حنفي بشدة في جعله العلاقة الجوهرية علاقة بين (الله) و(الرسول)، بين المرسِل والمرسَل، بين التوحيد والنبوة، وهذا ما يعتبره تكراراً لتجارب ملل سابقة على نحو مشابه، يقول: "ولكن التركيز على هذين القطبين الله والرسول يوحي بعقائد ملل أخرى تربط رباطاً جوهرياً بين الشخصين[7]، بالإضافة إلى أن هذين القطبين يمثلان مصدر الوحي ورسول الوحي فقط وغياب المرسل إليهم **كلية** في هذه العلاقة الثنائية، وهم الناس والشعب والأمة وكأن هذا الطرف الثالث لا وجود له كمحور في العقائد كما أن لا وجود له في حياتنا السياسية المعاصرة."

بتحليل العلاقة الكاملة الثلاثية: مرسِل ومرسَل إليه ثم رسول يتم بواسطته التبليغ وحمل الرسالة.

والمرسل إليه هم الناس والناس يعيشون في عالم ويبحثون عن نظام، وهم المعنيون أساساً بالرسالة، فكيف لا نجدهم كمحور أساس في العلم النظري الأساس: علم أصول الدين.

يحاول حسن حنفي استعادة مكانة الإنسان التي همشها علم أصول الدين في عمومه، وهذا كأول خطوة على طريق النهضة ثم الثورة، هذا التغييب في علم أصول الدين يشبه ذاك التهميش من الحياة السياسية المعاصرة، وعودته هنا تمهد لعودته هناك.

اللّه أم الإنسان؟

يرى الدكتور حنفي أن هناك مشكلة كبرى تصنعها العقيدة الدينية في عمومها، ولابد من قلبها، والانقلاب عليها، تتمثل في استحواذ عقيدتنا في (الله) على كل الكمالات التي كانت (للإنسان)، ثم احتوائه التدريجي له، خاصة في علم الكلام المتأخر، بعد القضاء على التيار النظري العقلاني وسيادة التيار التقليدي.

[7]- ويتضح ذلك في التاوية والكونفوشيوسية والبوذية ثم المسيحية، فقد كان لاوتزي وكونفوشيوس وبوذا والمسيح أشخاصاً تاريخيين، أنبياء ورسل ودعاة قبل أن يتحولوا آلهة " من العقيدة إلى الثورة، ج1، ص 88 [الهامش].

فأفعال الإنسان سلبت منه، لصالح التوحيد؛ فالتوحيد – في العقائد المتأخرة – يضم " كل شيء" بعد أن" كان الموقف في علم الكلام المبكر أن خلق الإنسان لأفعاله هو المبدأ والأساس".[8]

ويرى أن فكرة كون الله **كاملاً** صنعت الجبرَ والتصورَ بأن "أي فعل حر مستقل عنه هو نيل من كماله، وكأن الكمال لا يثبت إلا على حساب حرية أفعال العباد، وهو قريب من تصور الله كمِلك والعالم كله كمُلْكٍ له، وكأن الكمال الإلهي لا يثبت إلا بنقص الإنسان وخراب العالم".[9]

لقد ابتلي المسلمون في عصورهم المتأخرة بعقيدة الجبر، بعد أن كان الأصل هو الحرية الإنسانية وتمام الاختيار في عصور مبكرة، وصار التوحيد والجبر متلازمان، فتلاشى الإنسان، وتخلى العقل المسلم عن كل صفات الإنسان الجوهرية والكمالات وجعلها صفات خاصة بالله، وبالله وحده، ولابد من قلب الصورة، واستعادة الإنسان دوره وصفاته واخص خصائصه، خاصة عقله وإرادته الحرة.

الرسول أم الإنسان؟

تغييب الإنسان لدى التيارات العقدية التقليدية، كان إما لإبراز عقيدة كمال الله، وإما لإبراز دور الرسول، وهنا يستشكل تلك المكانة التي حظي بها الرسول في الفكر العقدي، رغم أن دوره ليس بتلك الأهمية، وهو لا يعدو كونه واسطة بين الله وبين العبد؛ أي أنه وسيلة للبلاغ والتبليغ، يقول: "والرسول ليس له هذه الأهمية[10] التي تجعله محوراً من محاور العلم مع الله كمحور أول.

فالرسول ما هو إلا مبلغ أي أنه وسيلة وليس غاية، وما على الرسول إلا البلاغ. وإلا وقعنا في علم السيرة، وهو من العلوم النقلية الخالصة، كما وقعنا في علم الكلام الذي يأخذ المرسل موضوعا له أي الله".[11]

لا بد من التوجه نحو غاية جديدة نرسمها لعلم أصول الدين، نتحرك نحوها، وهي استعادة مكانة الإنسان، كخطوة لإعادته للواقع، فما دامت الأهمية والمركزية في هذا العلم هي لغيره، لن يتغير شيء.

فالغاية من الدين هم الناس، وهم البشر، وهو العالم، أي الواقع.

فكيف نسقط الغاية من الحساب، ونجعل الوسيلة جزءاً من موضوع العلم؟

---

[8]- **من العقيدة إلى الثورة**، ج3، ص 10

[9]- المرجع نفسه، ج3، ص 32

[10]- يبدو أن مقصود حنفي هو انتقاده تمحور علم العقيدة حول شخصية الرسول لدرجة تجعلنا كأننا ندرس السيرة، ولا يقصد عدم أهمية الرسول بإطلاق، فلا شك أن دراسة الرسول كسيرة أمر له خطره وأهميته التي لا تنكر.

[11]- السابق، ج1، ص 88

"إن **الرسول ليس موضوعاً مستقلاً لعلم أصول الدين**، لأنه **وسيلة إيصال الوحي فقط**، ووسيلة تبليغ، فهو وسيلة لا غاية، وطريق لا هدف، وحامل لا محمول".[12]

من النبوة إلى العقل:

لم يظهر الوحي مرة واحدة، بل على مراحل، لا توجد إذن نبوة واحدة، بل عدة نبوات متتالية منذ أول الأنبياء، وهو أول البشر أدم إلى آخر الأنبياء دون أن يكون آخر البشر، وهو محمد[13] - عليه السلام -. يوظف حنفي هذه المقدمة للوصول إلى فكرة يرصدها العقل في ظاهرة النبوة، ألا وهي الحركة، التي تؤدي إلى التطور، الحركة ضد السكون والتطور ضد الثبات، السكون والثبات الذي يغلب على النموذج السلفي/ التقليدي/ النصوصي.

وهو- أي حنفي- يبحث عن مبرر منطقي لفكرة التطور من داخل النص، ومن داخل العقيدة الدينية نفسها؛ فالتطور والحركة هي السمة الغالبة على حركة النبوة منذ فجر التاريخ، فلماذا تتوقف هذه الحركية فجأة في المرحلة التي تسمى ختم النبوة؟ ما المسوغ لذلك؟

- يوظف الأستاذ حنفي فكرة النسخ - والذي لا يعني فقط تبديل آية بدل آية كما هو الحال في آخر مرحلة من مراحل الوحي - بل ظهور وحي تابعاً لوحي آخر، وظهور نبوة تابعة بعد نبوة هذا النسخ الذي يثبت (رصد) الوحي لديناميكية الواقع (رصدا) جعل تفاعله إيجابياً معه؛ أي متحركاً مع هذه الحركة.

فلماذا يتوقف الزمن والحركة عند المرحلة الأخيرة من مراحل النبوة؟

وكيف تخلقت فجأة هذه الطفرة **السكونية** بفعل ختم النبوة؟

نظرية **ختم النبوة** وظفت عقدياً بمعنى **سلبي** من وجهة نظر تنويرية؛ فكانت تعني غالباً اكتمال الوحي واطلاقيته، وبالتالي إعلاناً صارخاً لتبعية العقل لهذا الكامل/المطلق، في حين أن ختم النبوة يعني فقط -حين يعني- استكمال الوحي لدوره، وبالتالي نهاية حركته التاريخية، ليبدأ دور العقل. يقول: "ولا يعني اكتمال الوحي إلغاء الرسالات وإعدام الأنبياء، بل **يعني أن العقل وريث الوحي**، وأن الوحي قد أكمله وبه استقل الشعور".[14]

[12]- المرجع نفسه، ج1، ص 88
[13]- نفسه، ج4، ص 104
[14]- المرجع السابق، ج4، ص 124

فختم النبوة، لابد أن توظف على أنها إعلان لاستقلالية العقل لا تبعيته، هي لحظة **ولادة** لا وفاة، ليضع المبررات الواقعية التي تجعلنا ننظر إلى فكرة ختم النبوة - بالمعنى التراثي - نظرة ريبة ونقد؛ فالأنبياء أدوا **مرحلة تاريخية** والنبوة مرحلة تاريخية، وهي لا **تظهر حالياً**، فالأنبياء ليسوا أنبياء دائما، بل كانوا أنبياء وأدوا أدوارهم على أكمل وجه في التاريخ، في ظروفهم، في محيطهم، في زمانهم، ثم سلموا المشعل للعقل ليكمل المسيرة؛ أي العقل هو وريث النبوة والعلماء هم ورثة الأنبياء، وراثة حقيقية وليست وراثة رمزية، فالعالم نبي بمعنى من المعاني ورسول له وظيفة رسالية مستمرة مستقلة.

فالنبوة والوحي (النص) له دوره التاريخي الذي لا يُنكر، والآن لابد من استلام المشعل في غياب النبي، والمضي بالأمة لتجاوز مرحلة التخلف التي تعيشها، فإذا نجحنا في الوصول بها إلى الرقي والتقدم الإنساني فقد حققنا أهداف النبوة والرسالة، وعشنا مرحلة **نبوية** معاصرة.

إشكالية حضور النص في غياب النبي:

بعد أن عرفنا منهج وطريقة حنفي في تجاوز إشكالية استحضار النبي في الفكر العقدي، وهذا بإعلان ولادة العقل في مرحلة النبوة الأخيرة، لا تبدو الفكرة غريبة؛ فالعقلانية الإسلامية تقر بذلك والعقل الإسلامي الحر يشتغل على هذه النقطة، نقطة العقلنة في غياب النبي، فالعقل قادر على الحركة بعد النبي، وهو ما يسمى بالاجتهاد، الاجتهاد في الأصول وفي الفروع، لذا فحنفي يمضي في التحليل خطوة أخرى حاسمة وفاصلة، حين يتحدث هذه المرة عن (النص) في غياب النبي.

فالنص حاضر ومستحضر دائماً وأبداً في الفكر الاجتهادي الأصولي - سواء العقدي أو الفقهي - وهذا ما يشكل عائقاً أمام العقل، يحد من إمكانياته وقدراته، هذا الحضور للنص يعارض جوهر العقل الذي لابد أن يكون حاكماً لا محكوماً.

العقل يستند إلى الوحي يتدرب ويستقوي به، وهذه تجربة مقبولة، ولكن لا يبقى عالة للأبد، فهناك مرحلة يستقل فيها الإنسان عن أي فكر آخر، حين يعلن أنه أصبح قادراً، يقول: "لكن الوحي **يتوقف** عندما يصبح الإنسان قادراً بعقله على أن يصل للحكم دون تدخل نص آخر. ومن ثم إذا **أعلن** الإنسان بأنه **قادر** بعقله على أن يفهم القوانين الاجتماعية والطبيعية، وقادر بحرية اختياره على أن يختار بين بديلين، فعندئذ لا لزوم للوحي إطلاقا..."[15].

[15]- الإسلام والحداثة، ندوة مجلة مواقف، دار الساقي، لندن، ط1، 1990، ص ص 218-219

بهذه القفزة من حنفي، نفهم الفرق الجوهري بينه وبين العقلانية الإسلامية المعاصرة أو ما وصفناه بالتيار الإصلاحي، والتي كانت إلى هذه اللحظة غير متمايزة كل التمايز عنه، ليعلن حنفي لحظة الافتراق المعرفي عن المنظومة الإصلاحية، والتي تعد عقلانية في جوهرها، بعد أن لحظنا لحظة افتراقه عن المنظومة السلفية، في خطوة سابقة.

من النص إلى الواقع:

يرى حنفي أن كل مبررات استقلال العقل موجودة، وأن العودة للواقع ضرورية، وهذا من داخل جوهر النص الديني نفسه؛ فكل "آيات الوحي نزلت في حوادث بعينها، ولا توجد آيات أو سور لم تنزل بلا أسباب[16]، والسبب هو الظرف أو الحادثة أو البيئة، التي نزلت فيها الآية..."[17]

الأولوية للحادثة على الآية، الآية نزلت لتعالج واقعاً، الواقع يتحرك فيتحرك النص، فالأسبقية للواقع على النص، الواقع أولاً والفكر ثانياً، "المجتمع أولا والوحي ثانيا، الناس أولا والقرآن ثانيا، الحياة أولا والفكر ثانيا"، هذه المعادلة صحيحة وستبقى صحيحة.

الآن وقد انتهى عصر الوحي وعصر التنزل، فهل تنقلب المعادلة؟

فيصبح النص أولا والواقع ثانياً، نص **ثابت** لحوادث **متغيرة**، فكر **ساكن** لواقع **متحرك**.

النص من الإلهي إلى البشري:

في النماذج المعرفية الإسلامية يمكن للوحي أن يساير الواقع المتحرك المتغير، لأن **الوحي** إلهي/ مطلق/ كلي ومتجاوز للزمان والمكان، فيمكنه أن يساير الواقع المتحرك، بالقوة والكمون كما في الفكر الإسلامي العقلاني.[18]

ولكن حنفي يرى أن الكلام الإلهي متمثلا في الوحي، قد خرج من طور الإلهية واكتسب الصبغة البشرية، تنزل عن إطلاقيته وصار نسبياً بمجرد حلوله في الزمان والمكان، يقول: "يظن الكثيرون أن كلام الله وكلام البشر نقيضان، هذا وحي يوحى، وهذا صنع بشري، وكأن الإيمان يتحدد بقدر إثبات هذا التعارض نفي البشرية

[16]- في تعميمه هذا نظر، فلا نعرف أن لكل آية سبب نزول، فالكثير من الآيات نزلت ابتداء بلا سبب نزول معين، أو على الأقل لم ينقل لنا أن لها سبب نزول.

[17]- المرجع السابق، ص 135

[18]- في النموذج السلفي السكوني، لابد للواقع أن يساير النص لا العكس، نعيد توجيه الواقع إلى النص، النص هو المركز الثابت والواقع يتحرك نحوه وحوله، بينما العقلانية ترى إمكانية التقريب بين النص والواقع فالنص له ديناميكية معينة تجعله قابلاً للتحرك نحو أي واقع جديد، هذه المقدرة الكامنة في النص هي التفسير العقلاني لإطلاقية الوحي.

عن كلام الله، ونفي الإلهية عن كلام البشر... والحقيقة غير ذلك فقد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي..."[19]

القرآن كمنتج فني إبداعي يحيل على غيره الإتيان بمثله، ولكن هذا ليس خاصة قرآنية، فكل إبداع حقيقي هو معجز بوجه من الوجوه، لأن الخَلْقَ الفني لا يمكن تقليده، والمقلد ليس مبدعاً بحال من الأحوال.[20]

والقرآن كتشريع هو تطبيق لأصل العدل، وهنا يتجلى دور الأصوليين في استنباط قواعد الحلال والحرام وأسس السلوك البشري، والتدقيق في الحكمة التشريعية، وهذه عمل مقدور عليه من جهة العقل فهي لا تندرج ضمن خوارق العادات.[21]

فالقرآن كبنية هو كلام فيه خصائص الكلام، والكلام ذو طبيعة بشرية، وإن قلنا إن مصدره إلهي؛ فمن الناحية المنطقية قد حمل دلالات لغة البشر من حيث بشريتها، اللغة المحدود والقاصرة.

هنا الأستاذ حنفي يعامل النص القرآني كأي نص، كمنتج فكري وفني يعامَلُ معاملةَ النص البشري، خرج عن طوق الإطلاق والتعالي، فهو متنزل "فالعيب كل العيب في جعل الوحي مطلقا خارج الزمان والمكان".[22]

من الواقع إلى الواقع:

يقودنا حنفي إلى نهاية المطاف وغاية التطواف، إلى الواقع؛ فالواقع منطلق ومنتهى، مبدأ ونهاية، وسيلة وغاية، الواقع هو الحقيقة، وهو المحك، وكل الأفكار تنصهر في بوتقة الواقع، به تمتحن، تقبل وترد. حتى لو كانت هذه الفكرة (وحيا/ نصا/ مقدسا)، كل الأشكال تتحطم على صخرة الواقع، كل الأفكار تقبل إذا قبلها الواقع، والعكس بالعكس، فهو يتقبل كل النبوات وكل الوحي وكل الآراء على أن تمتحن على محك الواقع.

وهنا يصبح الواقع هو الحقيقة وما سواه مجازاً، اللغة مجاز، وكل الأفكار مجازات، حتى **الوحي** "مجاز وكل لغتنا مجاز، وكل كلامنا مجاز، وهو تقريب **لفهم الواقع** وتلك أهمية الخيال".[23]

---

[19]- المرجع السابق، ص 136
[20]- من العقيدة إلى الثورة، ج4/ 189
[21]- نفسه، ج201/4
[22]- **الإسلام والحداثة**، ص 136
[23]- المرجع السابق، ص 223

من الإنسان إلى الإنسان:

قلب حسن حنفي المفاهيم الكلامية السائدة، فالإنسان هو الحقيقة، والله مجاز، الصفات تعود للإنسان حقيقة، وتنسب لله مجازاً، لأنها في الواقع الإنساني حقيقة ثابتة، فتصبح في النص لله مجازاً.

يقول: "فالله **عالم قادر حي سميع بصير متكلم مريد بالمجاز، وأنا كذلك بالحقيقة...**[24]" فالإنسان هو العاقل العالم القادر الحي السميع البصير المتكلم **حقيقة** لا **مجازا**، فكيف يتخلى الإنسان عن صفاته، أخص صفاته، كيف يغيب الإنسان نفسه بأي مبرر كان.

لابد إذن، من تثبيت الحقوق وتحقيق الحقائق الواقعية لا النصية، الإنسان أولاً وأخيراً.

الإنسان/ المادة أم الإنسان/ الإله؟

إن مسايرة حنفي في نموذجه إلى غاياته، تقودنا إلى استعادة نهائية وكلية للإنسان وللواقع، ولكنها بالمقابل تقودنا إلى اختفاء وإخفاء نسبي للنص ولله.

قد نعتبر حنفي نجح في إظهار الإنسان، في استعادته من الناحية (المعرفية/ النظرية).

إنسان حنفي هو إنسان حر مستقل غير محدود، هو إنسان كامل.

ولكن المقابل كان غالياً كان إنسانا على حساب الله، إنسانا من دون الله.

في لحظات فارقة، قد يبدو حنفي غير متخل فيها عن الوحي وعن الله، حيث صرح بقبول كل الأفكار والآراء والنصوص والوحي كل الوحي، ولكنه قبول مجازي موهوم.

وحي حنفي هو وحي (هامشي/ثانوي/هش) يمكن الاستغناء عنه.

فالإنسان قادر مقتدر له القدرة والحرية والاستقلالية؛ فمعرفيا لا ضرورة للوحي، وواقعياً لا حاجة إليه، الإنسان له الحرية كاملة والقدرة تامة على الحركة في كل الاتجاهات بعيداً عن الوحي.

الله أيضا صار/ أو صُيِّر في نموذج حنفي النهائي والأخير إلهً (مجازيًا)[25] وما كان كذلك أيضا يمكن الاستغناء عنه، لأن الله إما أن يحضر وإما أن يغيب، فقط لا غير.

---

[24]- نفسه، ص 223

وهنا يظهر **إنسان حنفي**.

إنسان حنفي يختلف عن إنسان (الغرب/ المادي)، لأن في المنظومة المعرفية (الغربية/ المادية) الإله غائب أصلا، في النموذج المعرفي الغربي لا مكان لله المكان لا يسع إلا الإنسان.

الإنسان في المنظومة الغربية/ المادية هو (الإنسان/ المادة)، حيث الإنسان تحول إلى مادة.

بينما في المنظومة الحنفية المقترحة هو إنسان تحول إلى إله، صار كبديل لله، استعاد صفاته على حساب صفات الله.

فحنفي لا يستخدم نموذج (الإنسان/المادة) فهذا النموذج ربما غير مجدٍ، أو هو غير منشود بالنسبة لحنفي، لأنه يعيش في مجتمع غير مادي.

واقع حنفي المنشود الذي سيعيش فيه إنسانه (الإنسان/ الإله)

هو واقع إسلامي. النتيجة واقع طوباوي. وهذا الواقع غير متحقق.

إن نموذج حسن حنفي نموذج غير واقعي، وغير قابل للتحقيق، لأن الإنسان المسلم يرفض التخلي عن الإله، حتى لو أخذ صفاته.

كل محاولة للتخلي عن الله ستبوء بالفشل حتما في هذا الواقع اللامادي لعالمنا الإسلامي، لذا فلا فائدة من استحضار الإنسان وتغييب الرسول والله.

والسؤال؛ هل يمكن استحضار الله والنبي والإنسان في نموذج معرفي أكثر واقعية من نموذج حنفي هذا.

---

[25]- يقول د. حنفي: "إن العلوم الأساسية في تراثنا القديم مازالت تعبر عن نفسها بالألفاظ والمصطلحات التقليدية التي نشأت بها هذه العلوم، والتي تقضي في الوقت نفسه على مضمونها ودلالتها، والتي تمنع أيضاً إعادة فهمها وتطويرها، يسيطر على هذه اللغة القديمة الألفاظ والمصطلحات الدينية مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة، النار، الثواب، العقاب... هذه اللغة لم تعد قادرة على التعبير عن مضامينها المتجددة طبقاً لمتطلبات العصر نظراً لطول مصاحبتها للمعاني التقليدية الشائعة التي تريد التخلص منها، ومهما أعطيناها معاني جديدة فإنها لن تؤدي غرضها لسيادة المعنى العرفي الشائع على المعنى الاصطلاحي الجديد، ومن ثم أصبحت لغة عاجزة عن الأداء بمهمتها في التعبير والإيصال" التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للتراث والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1412، 1992، ص 110

مراجع البحث:

*** حسن حنفي:**

1- **من العقيدة إلى الثورة**، دار التنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1988

2- **من النقل إلى الإبداع**، دار قباء، القاهرة، د.ط، 2000

3- **التراث والتجديد- موقفنا من التراث القديم**، المؤسسة الجامعية للتراث والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1412-1992

4- **الإسلام والحداثة**، ندوة مجلة مواقف، دار الساقي، لندن، ط1، 1990

*** مصطفى ملكيان:**

5- **العقلانية والمعنوية- مقاربات في فلسفة الدين**، ترجمة عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، و مركز دراسات فلسفة الدين- بغداد، ط1، 1431-2010

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com